



خطبة صلاة الجمعة 27 / 7 / 2018 للشيخ الطيب محمد خير الشعال، في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالك

(خسوف القمر واللجأ إلى الله)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضل فلن تجد له ولياً مُرشدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، وصفيُّه وخليفه، خيرُ نبيِّ اجتباه، وهدى ورحمة للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (48) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (49) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ [الذاريات: 47 - 50].

قال ابن عباس: فروا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم.

قال القرطبي المفسر: فروا من معاصيه إلى طاعته.

وقال أبو بكر الوراق: فروا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن.

وقال ذو النون المصري: ففروا من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الشكر.

وقال عمرو بن عثمان: فروا من أنفسكم إلى ربكم.

وقال سهل بن عبد الله: فروا مما سوى الله إلى الله.

أيها الإخوة:

قرأت كما قرأتم وسمعت كما سمعتم عن خسوف كلي للقمر في الليلة القادمة مساء اليوم. يبدأ عند الساعة الثامنة والرابع مساء وينتهي بعد الواحدة ليلاً، وسيوضح الخسوف الكلي عند الساعة التاسعة والرابع وما بعدها. فأردت أن أجعل خطبة اليوم بعنوان:

خسوف القمر واللجأ إلى الله

أيها الإخوة:

جاءت الآيات المقروءة في مطلع الخطبة في سورة الذاريات بعد أن قصَّ الله تعالى علينا في السورة كيف أهلك قوم لوط بالحجارة أرسلها عليهم من السماء مسومة عند ربك للمسرفين، وكيف أهلك فرعون وملأه بالغرق في البحر، وكيف أهلك عاداً بالريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، وكيف أهلك ثمود بصاعقة من السماء فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين، وكيف أهلك قوم نوح بماء منهمر. ثم وجهت الآيات ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين، ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إني لكم منه نذير مبين.

والملاحظ أيها الإخوة أن هلاك هؤلاء الأقوام كلهم كان بظواهر - يُظنُّ أنها طبيعية - بأمطارٍ مغرقة أو بمياه بحرٍ مهلكة أو بصاعقةٍ مدوية أو بريحٍ عاتية !.

بل إن عاداً لما رأوا السحاب في السماء فرحوا واستبشروا وقالوا هذه سحب طبيعية ماطرة فيها سُقيا أراضيها فتجمعوا لها وتحتها فنزلت عليهم ريح من بين ذلك السحاب فأهلكتهم ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُنْظَرٌ إِنَّهُ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (24) تَدْمُرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأحقاف: 24، 25]

قال ابن عباس: أول ما رأوا العارض قاموا فمدوا أيديهم، فأول ما عرفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجاً من ديارهم من الرجال والمواشي تطير بهم الريح ما بين السماء والأرض مثل الريش، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم، فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم، وأمر الله الريح فأمالت عليهم الرمال، فكانوا تحت الرمال سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً، ولهم أنين، ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمال واحتملتهم فرمتهم في البحر، فهي التي قال الله تعالى فيها: "تدمر كل شيء بأمر ربها".

من أجل هذا -أيها الإخوة - كنتم ترون رسول الله صلى الله عليه وسلم يفزع إلى الله تعالى ويضرع ويلجأ إليه ويتوب ويستغفر بين يديه كلما رأى ظاهرة غير مألوفة من ظواهر الكون.

يخاف أن تكون مهلكة وإن فسر لها المفسرون بأنها ظواهر طبيعية لا تستدعي خوفاً ولا قلقاً.

روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها: قالت: «كَانَ -رسول الله صلى الله عليه

وسلم- إِذَا رَأَى غَيْمًا عُرِفَ فِي وَجْهِهِ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، النَّاسُ إِذَا رَأَوْا الْغَيْمَ فَرَحُوا، رَجَاءً أَنْ

يَكُونُ فِيهِ الْمَطَرُ، وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَ غَيْمًا عُرِفَ فِي وَجْهِكَ الْكَرَاهِيَةُ؟ فقال: **يا عائشة، وَمَا يُؤْمِنِي أَنْ**

يَكُونُ فِيهِ عَذَابٌ؟ قَدْ عَذَّبَ قَوْمٌ بِالرَّيْحِ، وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ الْعَذَابَ، فَقَالُوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾»

وفي رواية قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى مَخِيلَةً فِي السَّمَاءِ أَقْبَلَ وَأَدْبَرَ وَدَخَلَ وَخَرَجَ، وَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ، فَإِذَا أَمْطَرَتِ السَّمَاءُ سُرِّيَ عَنْهُ، فَعَرَفَتْهُ عَائِشَةُ ذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **وَمَا أَذْرِي؟ لَعَلَّه كَمَا قَالَ قَوْمٌ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾**».

وفي أخرى: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا رَأَى يَوْمَ الرِّيحِ - أَوِ الْغَيْمِ - عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، فَإِذَا أَمْطَرَتْ سُرِّيَ بِهِ، وَذَهَبَ عَنْهُ ذَلِكَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَسَأَلَتْهُ؟ فقال: **إِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ عَذَابًا سَلَطَ عَلَى أُمَّتِي**».

وفي أخرى قالت: «كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا عَصَفَتِ الرِّيحُ قَالَ: **اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا، وَخَيْرَ مَا فِيهَا، وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَإِذَا تَخَلَّتِ السَّمَاءُ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ، وَخَرَجَ وَدَخَلَ، وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، فَإِذَا مَطَرَتْ سُرِّيَ عَنْهُ، فَعَرَفْتُ ذَلِكَ عَائِشَةُ، فَسَأَلَتْهُ؟** فقال: **لَعَلَّهُ يَا عَائِشَةُ كَمَا قَالَ قَوْمٌ عَادٍ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾**».

وفي ويوم من أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم كُسِفَتِ الشَّمْسُ، وَكَانَتْ وَفَاةُ إِبْرَاهِيمَ ابْنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ فَقَالَ النَّاسُ: كَسَفَتِ الشَّمْسُ لِمَوْتِ إِبْرَاهِيمَ. فَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَقَالَتَهُمْ وَدَعَاهُمْ إِلَى اللُّجَأِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالضَّرَاعَةِ إِلَيْهِ وَالتَّوْبَةَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَالدُّعَاءَ وَسَنَ لَهُمْ صَلَاةَ الْكُسُوفِ وَالْخُسُوفِ، وَكَانَ إِمَامُهُمْ وَأَمَامُهُمْ فِي الصَّلَاةِ وَالضَّرَاعَةِ وَالِابْتِهَالِ.

أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: حَسَفَتِ الشَّمْسُ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالنَّاسِ، فَقَامَ، فَأَطَالَ الْقِيَامَ، ثُمَّ رَكَعَ، فَأَطَالَ الرُّكُوعَ، ثُمَّ قَامَ فَأَطَالَ الْقِيَامَ وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ سَجَدَ فَأَطَالَ السُّجُودَ، ثُمَّ فَعَلَ فِي الرُّكْعَةِ الثَّانِيَةِ مِثْلَ مَا فَعَلَ فِي الْأَوَّلَى، ثُمَّ أَنْصَرَفَ وَقَدْ انْجَلَّتِ الشَّمْسُ، فَخَطَبَ النَّاسَ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: **«إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَاتَانِ مِنَ آيَاتِ اللَّهِ، لَا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُ ذَلِكَ، فَادْعُوا اللَّهَ، وَكَبِّرُوا وَصَلُّوا وَتَصَدَّقُوا»**

ثُمَّ قَالَ: **«يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ وَاللَّهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزِيَّ عَبْدُهُ أَوْ تَزِيَّ أَمَتُهُ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمَ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا»**

قال ابن حجر في فتح الباري: (لما أمروا باستدفاع البلاء بالذكر والدعاء والصلاة والصدقة ناسب ردعهم عن المعاصي التي هي من أسباب جلب البلاء وخص منها الزنا لأنه أعظمها في ذلك، ... ومن حكمة وقوع الكسوف تبين أنموذج ما سيقع في القيامة، وصورة عقاب من لم يتب، والتنبيه على سلوك طريق الخوف مع الرجاء، لوقوع الكسوف بالكوكب ثم كشف ذلك عنه، ليكون المؤمن من ربه على خوف ورجاء).

أيها الإخوة:

الخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه. وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص. ومن حمل نفسه على الرجاء وحده تعطل، ومن حمل نفسه على الخوف وحده قنط ولكن من هذه مرة ومن هذه مرة.

وللعبد الصالح نظران: نظرٌ إلى نفسه وعيوبه وآفات عمله، يفتح عليه باب الخوف، ونظرٌ إلى سعة فضل ربه وكرمه وبره، يفتح عليه باب الرجاء.

ومنزلة الخوف من أجل منازل الطريق وأنفعها للقلب، وهي فرض على كل أحد، قال الله تعالى ﴿وَخَافُونَ إِنْ كُتِمَ مَوْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 175] وقال تعالى ﴿وَيَايَا فَارِهِبُونَ﴾ [البقرة: 40] وقال سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَهَيَّ النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: 40، 41] وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «إني لأعلمكم بالله، وأشدكم له خشية» وفي رواية "خوفا" وقال «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا، ولبكيتم كثيرا، ولما تلذذتم بالنساء على الفراش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى».

على قدر علم المرء يعظم خوفه فلا عالم إلا من الله خائف
فأمن مكر الله بالله جاهل وخائف مكر الله بالله عارف

أيها الإخوة:

اللَّجَأُ إلى الله، والفرار إليه، والخوف منه، والرجاء به، والتوكل عليه، والاعتصام بحبله، سمة المؤمن في أحواله عامة، وعند ظهور مُخِيفٍ أمامه خاصة.

وكلّ أحد إذا خفناه هربنا منه إلا الله عز وجل فإنك إذا خفته هربت إليه. فالخائف هارب من ربه إلى ربه. والخوف المحمود ما حال بينك وبين محارم الله عز وجل.

فتعالوا -أيها الإخوة- نترك حراماً علق بنا، وتعدّ لفريضة تركناها أو أخرناها، ونجتمع على باب الله ضارعين ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [فاطر:15-18].
والحمد لله رب العالمين